عقد الصدف

الهواء البارد اللطيف يهدهد خدّيّ بنعومة كلّما جلست على الكرسي أمام البحر، أقلّب بيدي بعض الصدف ويمتد موج البحر يداعب قدميّ الحافيتين عندما يصل إلى مكان جلوسي فيصيبني بقشعريرة خفيفة رغم الصيف، ثمّ ينحسر الموج ساحبًا معه الهموم المتراكمة داخلي، ليترك مكانها لبعض الهواء النظيف ورائحة البحر المالح المهدئة لأعصابي.

الشاطئ ساحر، كأنّ سحر الإسكندرية قد جُمع هنا في نظري، فأنا لا أتخلى عن نزولي في الفندق المقابل لهذا الشاطئ كلّ صيف مع أبي.

في كلّ صباح في تمام الثامنة، أحمل كتبي وأوراقي لأجلس على البحر حتى الظهيرة، أنشغل بهم عن انشغال أبي بأعماله عني.

هذا هو يومي الذى اعتدت أن أعيشه.

ففي يوم من تلك الأيّام، عدت إلى الفندق وقت الظهيرة، وقبل صعودي لغرفتي ذهبت لموظف الاستقبال لأسأله عن مكتبة قريبة لأشتري منها بعض الكتب التاريخية عن الإسكندرية.

فأجابني بأنّ هناك مكتبة في آخر الشارع، شكرته وصعدت لغرفتي أنتظر قدوم أبي الذي لم يأتِ كالعادة وتركني وحدي أتناول طعام الغذاء.

في صباح اليوم التالي ذهبت للمكتبة وصرت ألفّ المكان باحثة. كان صاحب المكتبة يراقبني وينتظر أن أسأله، وبالفعل سألته فأخبرني عن مكان تلك الكتب.

اخترت بعضها ثم ذهبت للمحاسبة فأخرج لي كتابًا صغيرًا، حجم وريقاته القليلة مغرٍ للقراءة، وأخبرني بأنّ هذا الكتاب يتحدث عن أسطورة هذا الشاطئ المقابل للفندق، بأنّه جسر بين الأزمان، يستطيع أهل اليوم إرسال رسالة إلى غيرهم في الماضي أو المستقبل عن طريق زجاجة مدفونة في رمل الشاطئ.

ضحكت كثيرًا عند سماعي عن الأسطورة، فقال صاحب المكتبة:-

-ولمَ لا تجربين؟ ربما تواصلتِ مع أحد من الماضي أو المستقبل وعرفتي منه أسرارًا كثيرة، اقرئي الكتاب ونفّذي الوصايا..

أومأت برأسي رغم عدم اقتناعي واشتريت الكتاب؛ فالكتاب صغير ولن يأخذ وقتًا طويلًا مني لقراءته على أي حال.

أخذت الكتب وذهبت للشاطئ، وبدأت بقراءته.

فوجدته يقول مثلما قال صاحب المكتبة، وأن السبيل لمراسلة أحدهم في زمن آخر أن تُكتب الرسالة وتُوضع في الزجاجة المدفونة في الشاطئ، ثمّ يعود صاحبها في اليوم التالي ليجد الردّ.

أنهيت الكتاب ثمّ تركته جانبًا لأقرأ غيره. لكن الفضول كان يمرجح نظرات عينيّ بين الكتاب الذي أقرأه وبين كتاب الأسطورة، حتى أنّني لم أستطع التركيز في القراءة.

فقرّرت إنهاء حالة الفضول بأن أتمشى على الشاطئ لأبحث عن تلك الزجاجة.

أخذت كتبي وأوراقي وظللت أتمشى قرابة الثلث ساعة ولم أجدها، حتى مللت من السير، وحين ضقت ذرعًا وقررت العودة، لاح لعينيّ انعكاس شعاع الشمس على شيء لامع في الرمال.

فركضت إليه فوجدت زجاجة كلاسيكية لكنها محتفظة برونقها، مدفونة في الرمال حتى المنتصف، ويغلق فوهتها قطعة مطاط.

كانت الزجاجة فارغة؛ فقررت على الفور دون تفكير أن أبدأ المغامرة؛ أخرجت القلم وقطعت ورقة من دفتري، ووضعت القلم بين أسناني أفكّر، فابتسمت وكتبت عليها:-

"إلى أحد فرسان الإسكندرية.. لا أدري في أي زمن كان، أخبرني من أنت ومن تكون؛ فأنا متشوّقة لمعرفتك"

طويت الرسالة ووضعتها داخل الزجاجة وأغلقتها وعدت لمكاني.

كنت أبتسم من فرط غبائي وأقول:-

-أحقًّا سيأتيني ردّ..

وفي صباح اليوم التالي عدت للزجاجة وأنا أعلم علم اليقين أنّني لن أجد بداخلها سوى رسالتي التي وضعتها أمس.

فتحت الزجاجة وتفاجأت بورقة أخرى قد طويت بشكل غريب ولُصقت في آخرها صدفة صغيرة.

أزلت الصدفة وقرأت الرسالة، كان فحواها:-

"إلى أميرة من أميرات الإسكندرية.. لا أعرف من هي ولكن كل ما أعرفه أنني سعيد بمراسلتها. لا أعلم في أي زمان أنتِ، في ماضٍ أم مستقبل. ولكن يكفيني إيماننا معًا بالأسطورة التي ستجمعنا.

سأجيبك عن أسئلتك، فالسؤال الثاني ستكتشفين وحدك مع الوقت من أكون.

فأنا أيضًا أريد أن أعرف من تكونين.

أما السؤال الأول فدعينا لا نسأل بعضنا عنه؛ فالأسماء لا تفيد."

أعجبتني الرسالة وارتسمت على شفتيّ ابتسامة عريضة لنجاح حيلة الأسطورة وجمال رسالته؛ فقررت استكمال الأسطورة معه.

لِم لا؟ فربّما تكون مغامرة جديدة وذكرى جميلة من تلك الإجازة.

مزّقت ورقة صغيرة من دفتري على الفور وكتبت له:-

"سعيدة برسالتك، وأحبّ أن أعرف من تكون. أمّا أنا.. فأنا من زوّار الإسكندرية وأسكن في فندق مقابل لهذا الشاطئ. لا أعرف إن كان هذا الفندق مشيّدًا في زمنك، فهو فندق كلاسيكي قديم من خمسة طوابق ولكنّي أعشقه.

فماذا عنك؟"

وضعتها وانتظرت الردّ.

فجاء الردّ في اليوم التالي:-

"أنا من سكان المدينة، وأعرف هذا الفندق الذي تتحدثين عنه. فإنّ كان نفس الفندق وأصبح بالنسبة لك كلاسيكي فهذا يعني أنّكِ في المستقبل.

إذن أخبريني كيف صارت الإسكندرية، وكيف تقضين وقتك هنا"

رددت في اليوم التالي:-

"الإسكندرية جميلة، ولكن ليست كما في الماضي. فهي مدينتي المفضلة منذ الطفولة، الشواطئ ساحرة، لكن مياه البحر لم تعد صافية مثل ذي قبل، والزحام خانق في الشوارع، والرطوبة تشتدّ عامًا بعد عام.

كنتُ في صغري عندما نذهب للشاطئ يكون الفارق بيننا وبين من يجلس تحت المظلّة المجاورة بضع مترات، ونجلس أمام البحر مباشرة.

أمّا الآن فقد أصبحت المظلّات مكدّسة وصفوف المظلّات تتعدى الصفّ الرابع أمام البحر.

ولا أسلم من مضايقات الشباب المصيفين في كلّ مكان.

لذلك هربتُ من زحام وسط المدينة لهذا الفندق البعيد نسبيًا، لأن الشاطئ هنا هادئ نوعًا ما، لكنه يزدحم مع قرب الظهيرة حين يستيقظ الناس؛ لذا أصحو مبكرًا جدًا في تمام السابعة صباحًا لأكون على الشاطئ في تمام الثامنة وأجلس بضع ساعات قبل الزحام.

أمّا بالليل فقد أتمشى في شوارع المدينة وأذهب للسينما وأتسوّق أو أجلس مع أبي على أحد المقاهي أمام البحر، حيث يظلّ الأجمل هنا هو جلسة بالليل على المقهى والاستماع إلى الأغاني القديمة ورائحة البحر تزكم أنفك ونسيمه يداعب وجهك."

فأتى ردّه في اليوم التالي:-

"من ما قلتِ تأكدتُ أنّكِ في المستقبل، فكلامك عن زيادة الأعداد والزحام يوحي بذلك. لكن في سياق ما أخبرتني عن ما تقضين وقتك فيه هنا، لم تذكري أنك ذهبتي إلى المسرح مرة. فالإسكندرية مليئة بالمسارح، كيف لا تحضرين عرضًا واحدًا؟"

فكان ردّي:-

"للآسف لم تعد المسارح كثيرة مثل أيّامك؛ فقد أُقفلت معظمها، ولم يعد سوى بعض المسارح التي تعدّ على أصابع اليد. ومعظمها مسارح خاصة، ولا تقدم عروضًا تستهويني.

لكنّك شوّقتني كثيرًا لمعرفة كيف كانت الإسكندرية في زمنك."

فجاء الردّ:-

" ماذا أقول لك.. الإسكندرية ساحرة بحقّ، رمل الشواطئ ناعم كالحرير، وماء البحر رائق حتى أنّك لو وضعتي ساقيك فيه لرأيتهما كأنّهما من وراء زجاج، والأصداف رائعة الألوان يحملها موج البحر هديةً للرمال.

والشواطئ فسيحة، أجلس وحدي فلا أشعر بصوت أحد ممن يجلسون حولي إلا صوت ضحكات بعض الشباب والفتيات الذين يمرّون أمامي فيعتذرون لو أزعجني صوتهم.

والشوارع نظيفة وهادئة، و"الترام" يزينها بحركته.

والسيارات الكاديلاك تمشي في الشوارع يركبها الأعيان، وتنزل منها الفتيات الجميلات بفساتينهن البراقة وقبعاتهن المزينة بـ "الدنتيل" ليمشين على الأرض كأنّهن لا تلمسنها، والمسارح تقدم عروضًا متنوعة لروايات مصرية وعالمية."

فجاء ردّي:-

"ما أجمل وصفك، كم أودّ أن أعيش في تلك الإسكندرية الجميلة. لكن على ذكر الأصداف، أخبرني.. ما أمر تلك الأصداف التي تلصق منها واحدة في كلّ رسالة؟

أتعلم أنّي بالكاد أجد بعض الصدف على الشاطئ في زمننا هذا."

فكان ردّه:-

"إذن اجمعيها واجعلي منها ذكرى جميلة لرسائلنا."

توالت الرسائل بينا حتى جاءت ليلة وجلست أضع أمامي على سريري الرسائل جميعها وأنظر إليها باسمة، فأقرأ منها ما يحلو لي.

أمسكت بمفضلتي وقرأت منها:-

"البحر يمتد ليداعب قدميك، فإذا جلستُ انحسر عني وقال ليس بعد معانقة جمالكِ جمال، والشمس مثله لا ترى مثل انعكاس ظلّك لتشرق له، والنّسيم كأنّما رحل من زمني إليكِ ليحمل لكِ ما لم تحمله الكلمات.

فاتركي لي شيئًا منهم ولا تحتكري الطبيعة في قلبكِ وحده."

كرّرت قراءتها مرات، ثم قلّبت باقي الرسائل حتى قرأت رسالته عن جمع الأصداف، فأحضرتها وجمعتها معًا في خيط وصنعت منها عقدًا ووضعته في رقبتي.

كان العقد يحتاج إلى عدد أكبر من الأصداف ليكتمل؛ فقالت لنفسي:-

-سأضيف له مع كلّ رسالة..

في صباح اليوم التالي نزلت كعادتي وأعطيت موظف الاستقبال مفتاح الغرفة، فقال لي:

--ما هذا العقد الغريب يا آنستي؟ أاشتريته من هنا؟

-لا، لكنّها بعض أصداف الشاطئ، كلّما جمعتها وضعتها في العقد..

-جميل، ذلك العقد لم يكتمل بعد..

-صحيح، لازلتُ أسعى لاكتماله..

ثمّ تركته وذهبت للشاطئ لأقرأ الرسالة الجديدة.

"جميلتي، لِم لم تكتبي لي أمس، فأنا أشتاق لكتابتك، إنّي أعاتب قلمك إذ قد جفاني، فكيف استطاع، أما يكفيه أنه يقبع بين أصابعك ليل نهار، يشمّ رائحة عطرك ويداعب جلدك، فأحسده على القرب منك، فزاد على حسدي له العتاب.

أخبريه بأنّي لا أطيق فراق خطّه ولا فراق صاحبته."

شعرت بسخونة وجهي خجلًا عندما قرأتها، فكان ردي عليه:-

"لا أستطيع الردّ عليك لأن جمال كلماتك في رسائلك السابقة أعجز تفكيري؛ فأصمت لعلّ صمتي يكون أبلغ من الكلام.

ليتك هنا أو ليتني هناك، ليت الزمان واحد كما المكان واحد."

تركت الرسالة ومضيت في انتظار رسالته العاشرة.

في صباح اليوم التالي، استيقظت متأخرًا فهرولت سريعًا لأرتدي ملابسي وسحبت العقد لألبسه لكن انقطع خيطه من قوة سحبي له؛ فنزلت على الأرض ألملمه فسمعت صوتًا شديدًا لاحتكاك إطارات سيارة بالإسفلت نتيجة توقفها فجأة في الشارع الفاصل بين الفندق والشاطئ فأسرعت إلى النافذة فرأيت تجمع الناس حول السيارة.

لملمت باقي الأصداف ووضعتها في حقيبتي ونزلت لأرى ما حدث.

عندما اقتربت كان الناس يردّدون "لا حول ولا قوة إلا بالله".

اقتربت أكثر فوجدت الشاب موظف الاستقبال ملقى على الأرض في دمائه ساكنًا مقطوع الأنفاس، ورأيت صاحب المكتبة يجري من ناحية مكتبته نحوه ليجلس بجانبه ويبكي.

دقّقت النظر فوجدت بين أصابع الشاب ورقة ملصقة عليها صدفة.

أخذت الورقة مصدومة وأنا أتذكّر عندما سألني عن عقد الصدف من قبل، وعندما أخبرني عن مكان المكتبة.

ضغطت على الورقة في يدي كما ضغطت على دموعي، ثمّ قمت وأنا أحتضن الكتب والأوراق إلى صدري بشدّة.

سرت إلى الشاطئ هائمة وجلست على كرسيّ.

فتحت الرسالة فكان محتواها:-

"قد آن الأوان لإجابة سؤالك الأول.. انظري خلفك الأن."

أغلقت الرسالة، وأسلمت قدميّ لموج البحر وأعرته دموعي عائدة لوحدتي.

يوم يمرّ تلو الآخر وأنا أحتفظ بالصدفة الأخيرة ولا أضعها في العقد، لأظل أقلّب بيدي عقد الصدف الذي لم يكتمل.

تمت